سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

محاضرة

لبَّيك

لفضيلة الشيخ

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشَّيخُ لم يراجع التَّفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلامّ علىٰ رسول الله ومصطفاه.

ضمن سلسلة هدي النبي ﷺ نبقىٰ وإياكم في هذه اللحظات مع اللقاء الرابع بعنوان:

لبيك عن هدي النبي ﷺ في الحج

محاضرة قيّمة يلقيها علينا فضيلة الشيخ خالد بن عبد الله المصلح، المحاضر بجامعة الإمام بالقصيم.

فجزاه الله خيرا ونفعه بعمره وعلمه، إنه سميع مجيب، وجعلنا وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

المحاضـــــرة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، أحمده سبحانه وأثني عليه الخير كله.

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله، إلـٰه الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه، بعثه الله بالهدىٰ ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيًا إليه بإذنه وسراجا منيرا، فبلّغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، حتىٰ أتاه اليقين وهو علىٰ ذلك، فصلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، ومن اتّبع سنته بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فحياكم الله أيها الإخوة في هذا اللقاء، وأبدؤه بذكر حقيقة يدركها كل واحد منا، إلا أن هذه الحقيقة غائبة عن كثير من الناس، غائبة؛ لا أنهم ينكرونها ولا أنهم لا يصدقون بها؛ بل هم في غفلة عنها:

أعمارُنا -أيها الإخوة- أيام قلائل، سرعان ما تنقضي وتزول، عمري وعمرك إنما هو أيام، إنما هو ليالي، ثم ينقضي ذلك؛ مهما طال العمر ومهما امتدت الأيام والليالي، إلا أن ذلك لا يخرج عن قول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾[الإسراء]، تعتقدون وتصدقون وتجزمون في ذلك اليوم أن لُبْثَكُم في الحياة الدنيا قليل، ليس بأمدٍ طويل ولا بزمنٍ كبير؛ إنما هو قليل، وقد قال جل وعلا: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾[المؤمنون]،

لعمـــرك مـا الأيـام إلا مفـازةٌ فما اسطعت من معروفها فتـزود

الأيام مفازة يقطعها الناس، إلىٰ جنةٍ عرضها السمٰوات والأرض، أو إلىٰ دارٍ يعذَّب فيها أهلها عذابا مادامت السمٰوات والأرض؛ عذابا دائما لا ينقطع.

كتب الإمام الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ في وصيَّته كلمات بمثابة المصابيح التي تبيِّن لنا حقيقة الدنيا، وما ينبغي أن نكون عليه في نظرنا إليها وتعامُلنا معها.

يقول رَحِمَهُ اللهُ في وصيَّته: **فاغتنم -رحمك الله- حياتك النَّفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة.**

واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفَسٍ ينقص به جزءٌ منك، والعمر كله قصير.

العمر مهما امتدّ ومهما طال ومهما كثرت سنواته وامتدَّت أعوامه إلَّا أنه قصير.

والعمـر كلـه قصـير والباقي منه هو اليسير

يقول رَحِمَهُ اللهُ في بيان قيمة أعمارنا: **وكل جزءٍ منه**؛ أي من عمري وعمرك. **جوهرة نفيسة لا عِدْل له ولا خلف منه، فإن بهذه الحياة اليسيرة خلودٌ أبدي في النعيم أو العذاب الأليم، وإذا عدلت هذه الحياة بخلود الأبد علِمْت أن كل نَفَس يعدل أكثر من ألف، ألف، ألف عام في نعيم لا خطر له.** أي لا خوف عليه. **أن يزول أو يرتفع، وما كان هكذا فلا قيمة له، فلا تضيع جواهر عمرك النفيسة بغير عمل، ولا تُذهبها بغير عوض، واجتهد أن لا يخلو نفَسٌ من أنفاسك، إلا في عمل طاعة أو قربةٍ تتقرب بها إلىٰ الله، فإنك لو كانت معك جوهرة من جواهر الدنيا لساءك ذهابها، فكيف تفرق في ساعاتك وأوقاتك، وكيف لا تحزن علىٰ عُمُرك الذاهب بغير عوض.**

هذه الكلمات أيها الإخوة من هذه العالم الموفّق الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ بمثابة المصابيح والإضاءات والتنبيهات التي ينبغي أن نقف عندها؛ لندرك حقيقة أعمارنا، حقيقة حياتنا، حقيقة وجودنا في هذه الدنيا، إنها فرصة، إنها منّة، إنها منحة، أيامك معدودة فلا تفرّط فيها، ولا تضيّعها فيما لا يعود عليك بالخير، كيف لا تحزن علىٰ ساعات تمضي بلا خير ولا بر ولا طاعة ولا إحسان.

نسير إلىٰ الآجال في كل ساعة وأيامنا تُطوىٰ وهُنّ الرواحل
ولم نر مثل الموت حقا كأنه إذا ما تخطته الأمانيُّ باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبىٰ فكيف به والشيب في الرأس نازل
ترحَّل عن الدنيا بزاد من التقىٰ فعمرك أيام تعد قلائل

أيامي وأيامك أيام قلائل، ليست أياما ممتدة خالدة، إنما هي أيام معدودة سرعان ما تنقضي وتزول، ويبقىٰ ما كان فيها من عمل، إما من خير يُسرّ به العبد، وإما من الإساءة التي يؤاخذ بها ويسوءُه أن يلقاها عند الله تعالىٰ.

أيها الإخوة إن عمر المؤمن لا قيمة له في الحقيقة؛ لأنه زرْع الآخرة؛ لأنه بذْر ما يجنيه يوم القيامة من نعيم ممتدٍّ لا ارتحال عنه ولا ارتفاع ولا زوال.

قال سعيد بن جُبير رَحِمَهُ اللَّهُ: **كل يومٍ يعيشه المؤمن غنيمة**. ولاشك أن هذا إنما يكون لذلك الذي نظر إلىٰ الدُّنيا نظرة بصر وفكر واعتبار، أمّا ذاك الذي يدفع الليالي والأيام، ذاك الذي لا يقيم لزمانه وزنًا ولا لعمره قيمة، فإنه لا قيمة لعُمره في الحقيقة.

أما المؤمن فإن أيامه ولياليه لا قيمة لها وهي غنيمة عظيمة؛ لأنه يعمرها بما يرضىٰ الله به عنه، يعمرها بالصالحات والطاعات، يقطعها بما فيه فوزه ورفعة درجته وحط خطاياه، ووضع أوزاره.

قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من كبار التابعين: **ما من يوم أخرجه الله إلىٰ الدُّنيا، إلا يقول: يا ابن آدم؛ اغتنمي لعله لا يوم لك بعدي. ولا ليلةٌ إلا تنادي: يا ابن آدم اغتنمي لعله لا ليلة لك بعدي.**

وهكذا هي الأيام والليالي، شهودٌ علينا بما فيها من الصَّالحات، شهود علينا بما حوته من الأعمال، كواجب وحق علىٰ كل عاقل بصير أن يغتنم أيام عمره، وأن يبادر فيها إلىٰ كل بر وطاعة، وأن لا يغره صغرُ سنه، أو تقدم عمره فإن من الناس من ينظر إلىٰ الصِّغر علىٰ أن الأجل بينه وبينه مفاوز فيُقعده ذلك عن كثيرٍ من الخير، ومن الناس من يشيب علىٰ الإساءة ثم يأتيه الشَّيطان فيقول له: قد فرّطَّت في زمن الصغر ولا سبيل لك إلىٰ العودة والرجعة.

وكل هذا من وساوس الشيطان «**فإن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ» كما في «صحيح الإمام مسلم» من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يبسط يدَه بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»[1]، وهكذا الأمر حتىٰ تطلع الشمس من مغربها.

فينبغي لنا أيها الإخوة أن نبادر أعمارنا، وأن نسابق إلىٰ ما فيه رضوان الله جل وعلا، وأن نغتنم أعمارنا من الليالي والأيام، فإنها فرصة عظيمة.

ولقد فهم هذا وفطِنَ له سلفنا الصالح رحمهم الله، فكانوا يسابقون إلىٰ كل خيرٍ، إذا رأيت سِيَرهم

---

(١) **مسلم**: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث رقم (٢٧٥٩).

وسمعت كلامهم وجدت أمرا عجبا، رأيت قوما اجتهدوا في الاستكثار من الصالحات، شمروا في الاستزادة من زاد التقوىٰ، رأيت قوما بلغ بهم الجد والاشتغال في الصالحات حتىٰ إنه لو قيل لأحدهم: إن القيامة تقوم غدًا. ما قدر أن يزيد في عمله شيئا؛ وذلك لأنه لم يبق من وقته ما يضيع أوما يذهب سدىٰ؛ بل هو المستثمر لأيام عمره وأيام زمانه، يستثمر لحظاته قبل ساعاته، وهذا هو شأن أولئك الذين **فطِنُوا لقول الله تعالىٰ في وصف أوليائه وخُلَّص عباده:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[الأنبياء]، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن يسارع، يسابق يجري في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ويسير فيها سيرا حاثا لعله يدرك فضل الله جل وعلا، يدرك رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوما من عباده فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾[المؤمنون]؛ سابقون أن تفوتهم، سابقون أن يذهب عليهم فضله أو يسبقهم خيره فلا يدركوه، إنهم يسارعون في الخيرات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[الأنبياء].

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم علىٰ الخير عفوًا.** هذا من عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان لما كان عليه سلفنا الصالح من الانجذاب إلىٰ الطاعات والإقبال علىٰ الخير دون عوائق ودون موانع، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **إنّ الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم علىٰ الخير عفوا، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا علىٰ كُره.** أي لا تستجيب لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تقبِل علىٰ الخير إلا بنوع من الإكراه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فينبغي لنا أن نُكرهها، ينبغي لنا أن نحملها علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.** فقد حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات كما فيما رواه الإمام مسلم من قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فينبغي لنا أيها الإخوة أن نروّض أنفسنا وأن نربيها علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن نحملها علىٰ الجادة، وأن ننظر إلىٰ سير القوم أولئك الذين أثنىٰ الله عليهم، وبيّن عظيم سبقهم، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا بإعمال الطاعة في جميع أزماننا وفي كلِّ أوقاتنا وفي كل أحوالنا، فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩ ۝٧٧﴾[الحج]، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بأنواع من العبادات من الركوع والسجود، وأمر بالعبادة علىٰ وجه العُموم، ثم أمر بفعل الخير، وكل ذلك أمرٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده أن يشتغلوا بالصَّالحات دهرهم؛ لأنَّ الإنسان لا يعلم نجاته في أي محلٍّ تكون، ولا في أي وقت تحصل، فينبغي له أن يسابق وأن يسارع؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا باغتنام الأعمار ومسابقة الآجال؛ قال تعالىٰ: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾[الحديد].

أيها الإخوة الكرام إن الله ﷻ لم يرض في سيْرِنا إليه ولا في سفرنا إليه أن نمشي مشيًا كالًّا، مشيا وئيدا؛ بل طلب منا جل وعلا أن نسابق إليه مسابقة وأن نسارع إليه مسارعة، فقال ﷻ: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾، وقال سبحانه وبحمده: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[آل عمران]. اللّٰهُمَّ اجعلنا من عبادك المتقين.

أيها الإخوة الكرام إن الله ﷻ أخبر في مواضع كثيرة من كتابه أن الناس يختلفون في سيرهم، يختلفون في أعمالهم، يختلفون في إقبالهم علىٰ ما ينفعهم في هذه الدنيا، فقال جل وعلا من جملة ما ذكر قال: ﴿وَلِكُلٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾[البقرة:١٤٨]، أي لكل طريقة، لكل اتجاه، يسلكه في حياته، يسلكه في إصلاح آخرته، يسلكه في عمارة دنياه، إلا أن المفلح الذي ينبغي أن يعمل به كل صالح، كل مؤمن، كل من يرجو نجاته ما ذكره الله ﷻ في خير وِجهة، وهي الوجهة التي يُقصد فيها جل وعلا، فقال ﷻ ﴿ وَلِكُلٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾[البقرة:١٤٨]، أي سابقوا إلىٰ الخيرات استكثارا، سابقوا إليها تحصيلا، سابقوا إليها أخذا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾﴾، فالله ﷻ أمرنا بأن نستبق الخيرات أن لا تفوتنا، أمرنا أن نستبق إليها أن لا تضيع علينا وأن لا تذهب سدىٰ، فإن الإنسان في هذه الدنيا يسير وهو قد أُعِدَّ له من العداوات ما يحول بينه وبين بلوغ الغايات، إلا من وفقه الله ﷻ وحفظه، فإن الشيطان قد قال وأخذ علىٰ نفسه الميثاق: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[الأعراف]، هكذا الشيطان أخذ علىٰ نفسه عهدا، أن يصدَّنا عن كل خير، وأن يحول بيننا وبين كل بر، وأن يزيِّن لنا كل شر، وأن يدعونا إلىٰ كل رذيلة، هكذا هو هذا العدو الذي لنا بالمرصاد، ما من طريق خير إلا يقف عليه يثبط عنه، وما من طريق شر إلا يقف عليه يزينه ويدعو إليه ويرغب فيه، والبصير من وفقه ﷻ إلىٰ السلامة من كيده، إلىٰ السلامة من مكره، إلىٰ السلامة من شره، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه ومكره إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أيها الإخوة الكرام إن من رحمة الله تعالىٰ أن أمرنا جل وعلا بالمسابقة إليه، ثم إنَّه منّ علينا بأن جعل لنا من المواسم ما هي مواسم خيرٍ وبر، ما هي مواسم سبق وفضل، ما هي مضمار مسابقة إليه ومسارعة إلىٰ رضوانه جل وعلا، فجعل بحكمته ورحمته مواسم من أيام الزَّمان، هي مواسم خير يستبق فيها المتسابقون إلىٰ طاعته، وهذه المواسم من رحمته أن فرّقها في أيام الزمان، فلم يجعلها مجتمعة في

أول العام، ولا في آخره، ولا في وسطه؛ بل هي منثورة كالدرر، منثورة كالمحطات على طريق السفر إلى الله تعالى، يقف فيها المؤمن، يتزوّد فيها من زاد التقوى والإيمان، يتزود فيها من زاد الخير والبر والإحسان، ليبلغ الغاية والمقصد، ليصل إلى فضل الله ورحمته.

والعاقل البصير هو من يستكثر من الخيرات في هذه المحطات، إننا إذا سلكنا طريقنا إلى بلد بعيد ومفازة عظيمة، إن الإنسان إذا وقف عند محطة من المحطات أخذ كل ما يحتاجه؛ بل إنه يأخذ شيئا لا يحتاجه خشية أن يعرِض له عارض، أو أن يمنعه مانعٌ من سيره في غايته ومقصده، فكيف بالسَّفر الذي فيه من الأهوال ما تشيب له الولدان، كيف بالسَّفر الذي فيه منازل عظيمة تنخلع منها القلوب وتشيب لها رؤوس الولدان كما قال الله تعالى في وصف ذلك اليوم الذي سنمر به جميعا أنا وأنت، أبي وأبوك، أمي وأمك، أخي وأخوك، كلنا سنمرّ من ذلك الطريق، وسنقف على ذلك الهول: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾[الحج]، إنه موقف مهول، موقف عظيم نمر عليه جميعا، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾[الزلزلة] متعجبا من عظيم هذا الزلزال الذي يحيط بالأرض كلها، فلا يترك منها جانبا، ولا يترك منها جزءا، ولا يترك منها ناحية من النواحي؛ بل يحيط بها من كل جانب.

ثم تُخرج الأثقال، ما هي الأثقال؟ هي الموتى الذين مَلَؤُوا هذه الأرض، وكذلك يخرج منها ما فيها من الكنوز، وما فيها مما أودعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويأذن بالخروج في ذلك اليوم العظيم.

إنها أهوال التي تكون في الدنيا، أهوال تكون في القبور، أهوال تكون في أرض المحشر، أهوال عندما نمر على الصراط، أهوال... حتى يستقر بالإنسان القرار في الجنة نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فضله، أو يستقر به الحال في موضع هول عظيم وخطب جليل وهو النار نسأل الله السلامة منها.

ألا يستوجب هذا السفر أن نعدّ له العدة؟

ألا يحتاج هذا السفر الطويل العظيم الذي فيه هذه الكروب العظيمة والأهوال الكبيرة أن نتزوّد في مواسم الخير وفي مواسم البر؟ بل أن نتزود في أعمارنا لذلك السفر الطويل؟

إن المؤمن ينبغي له أن يعد لسفره إلى الله تعالى، كما يعد لسفره من بلد إلى بلد في هذه الدنيا، إن المؤمن خير ما يسافر به إلى الله عَزَّوَجَلَّ وخير ما يعتد به ويعده إلى سفره ولسفره، أن يستعد بالعمل الصالح ولذلك قال الله تعالى في ذكر موسم من مواسم الخير قال جل وعلا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن

فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[البقرة:١٩٧]، الله جلَّ وعلا ذكر موسمًا من مواسم البر، موسمًا من مواسم التقرب إليه وهو ما يكون في أشهر الحج من قصد بيته الحرام، ثم بيّن ما يكون فيه ممّا ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الحال، ثم قال نادبًا إلىٰ الاستزادة من كل خير: ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ ثم أمر بالتزوُّد، والتزوّد لا يكون إلا لمسافر الذي يُعد الرحيل ويستعد للانتقال، وتزوّدوا فإنَّ خير الزاد التقوىٰ، اللّٰهُمَّ اجعلنا ممن يتزود بهذا الزاد للقائك يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام إن خير ما يَقْدَمُ به العبد علىٰ الله تعالىٰ، خير ما يَجِد به العبد علىٰ الله جل وعلا العمل الصالح، العمل الصالح ذاك الذي يحصل له به الأمن؛ العمل الصالح الذي يؤنسه في القبر، العمل الصالح الذي يكون معه يوم القيامة في أرض المحشر بشتَّىٰ أنواعه وصوره، فإنَّ الناس يوم القيامة يبلغ بهم الهول علىٰ قدر ما معهم من العمل.

فإذا كانت أعمالهم صالحة خفت عليهم تلك الأهوال وأعانهم ذلك علىٰ استقبال تلك المخاوف، ومن ذلك أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ قال: «**المؤمن في ظل صدقته يوم القيامة.**»[١]، وقال ﷺ في القرآن: «**يأتي شفيعا لأصحابه يوم القيامة ينافح عنهم.**».[٢]

إن الأعمال الصالحة من أعظم ما يتقي به الإنسان مصارع السوء.

إن الأعمال الصالحة خير ما يتوكَّأ ويعتمد إذا عثر، وإذا زلت قدمه في مهوىً من مهاوي الهلاك أو مصرع من مصارع الهلاك.

أيها الإخوة الكرام؛ إنّ العمل الصالح جعل الله له من المواسم ما يُطلب فيه مزيد عناية بالأعمال الصَّالحة، يُطلب فيه مزيد اجتهاد؛ وذلك لكونه من مواسم النَّفحات، من محالِّ الكرامات، فالله ﷻ له في أيَّام الزمان وفي أعمار الناس نفحات يصيب بها من يشاء من عباده، فالعاقل اللبيب ذاك الذي داوم الطَّرْق، ذاك الذي داوم الطلب، ذاك الذي داوم البحث والتعرض لهذه الرحمات عسىٰ أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، أو رحمةٌ من تلك الرحمات، فيكون ذلك سببا لسعادته في الدنيا والآخرة.

إن مواسم الخير وإن فضائل الأوقات من غفل عنها لم يربح ولم ينجح، فاته خير كثير، فاته برٌّ

---

(١) ذكره الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» برقم (٣٤٨٤)وقال: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، والبيهقي في «الشعب».

(٢) **مسلم**: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم (٨٠٤).

عظيم.

ومن أعظم مواسم البر، وأكرم أيام الزمان، وخير أيام العمر ما نحن فيه من أيام العشر أيها الإخوة؛ فإن عشر ذي الحجة التي أقسم الله ﷻ بلياليها في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾[الفجر] هي من خير أيام الزمان.

قال جماعة من أهل التفسير في بيان معنىٰ الليالي العشر قالوا: إنها عشر ذي الحِجة.

وقد اختلف أهل العلم رحمهم الله في أيهما أفضل: العشر الأول من ذي الحجة أم العشر الأخير من رمضان؟

وذلك لقول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ: «**ما من أيام من العمل الصالح فيهنَّ أحبُّ إلىٰ الله من هذه الأيام العشر.** »، فقالوا: يا سول الله؛ ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول ﷺ: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء.** »[(١)]

وهذا يبين لنا عظيم منزلة هذه الأيام، وأنها خير أيام الزمان، العمل الصالح فيها خير من الجهاد في سبيل الله، الذي يرجع فيه الإنسان سالما في نفسه أو سالما في ماله.

أيها الإخوة الكرام إنَّ الأيام العشر بيّن رسول الله ﷺ عظيم منزلتِها، وكبير مكانتها، ففي صحيح البخاري من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**ما العمل في أيامٍ أفضَلُ منها في هـٰذه**» أي في هـٰذه العشر، قالوا: ولا الجهاد؟ قال النبي ﷺ: «**ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء.**»[(٢)]، «**خرج يخاطر**» أي يطلب الموت مظانّه، يطلب الشهادة في سبيل الله فحصلها فأهريق دمه، وعُقر جواده ولم يرجع إلىٰ أهله بشيء، هذا هو الأفضل من ذاك الذي اجتهد في هذه الأيام.

أما ما عدا هذه الصورة من صور الجهاد فإنها دون العمل الصالح في الفضل، وذلك أن النبي ﷺ قال كما في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فيما رواه الإمام أحمد بسند جيد قال: «**ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه من العمل فيهن من هذه العشر**» وهذا يشمل سبق العمل في هذه الأيام، الجهاد من العمل الصالح؛ بل هو من أشرف الأعمال الصالحة، وقد سئل عنه النبي ﷺ وهل له مقارب أو مساوي أو نظير

---

(١) **البخاري**: كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم (٩٦٩). **اللفظ لـ: الترمذي**: كتاب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، حديث رقم (٧٥٧). الحديث الذي بعده اللفظ للبخاري.

(٢) تم تخريجه صفحة (١٠).

من الأعمال؟ فقال ﷺ: «**لا عِدل له**». أي لا نظير له، لكن العمل الصالح في هذه الأيام أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

وذلك أن العمل الصالح له مواسم، فمن المواسم ما يكون فيه الجهاد فاضلا، ومن المواسم ما يكون فيه سائرالعمل من الأعمال الصالحة فاضلًا، وخير ما يكون من العمل الصالح في هذه الأيام ما أخبر به النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ من كثرة ذكر الله جل وعلا، وسيأتي بيان ذلك فيما نستقبل إن شاء الله تعالىٰ.

أيها الإخوة الكرام إن عشر ذي الحجة هي التي سماها الله ﷻ بالأيام المعلومات في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[الحج:٢٨]، فالأيام المعلومات هنّ عشر ذي الحجة كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره من أهل التفسير.

عشر ذو الحجة أيها الإخوة فيها ذلك اليوم الفضيل، فيها ذلك اليوم العظيم، الذي اختص الله ﷻ به أهل الإيمان وأهل الإسلام المسابقين إلىٰ الفضل والإحسان ممن يقصد بيته الحرام، يأتي ﷻ يدنو من أهل الموقف فيباهي بهم الملائكة، وهو يومٌ يكثر فيه الفضل، ويكثر فيه الإحسان، ويكثر فيه المنّ؛ ففي صحيح الإمام مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ : «**ما من يوم أكثر من أن يُعتق فيه عبدا من النار من يوم عرفة**»[1]، فإن يوم عرفة أكثر الأيام التي يحصل فيها عتق العبيد من النار؛ وذلك فضل الله نسأل الله جل وعلا من فضله وأن لا يحرمنا جوده وكرمه بسوء عملنا وتقصيرنا.

أيها الإخوة إن الأيام العشر تفضل بما فيها من عظيم السبق في هذا اليوم، فهو اليوم الذي أتم الله فيه الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

روىٰ البخاري عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يهوديا قال له: إنكم تقرؤون آية، لو نزلت فينا -يعني اليهود- لاتخذناها عيدا -أي لجعلناها عيدا نحتفل بها ونُسَر؛ لما فيها من الفضل، ولما فيها من الخير، ولما فيها من عظيم المنّ علىٰ أمة الإسلام- وهي آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت، وأين كان رسول**

---

(١) **مسلم**: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، حديث رقم ١٣٤٨.

الله ﷺ **حين أنزلت، يوم عرفة، إنا والله بعرفة**. أي أنزلت علىٰ رسول الله في ذلك المجمع العظيم، فكيف لا تكون هذه الأيام خير أيام الزمان وفيها هـٰذه الدرة العظيمة، وفيها هـٰذا الفضل الكبير الذي اختص الله ﷻ به هذا اليوم المبارك؟

أيها الإخوة الكرام هـٰذه العشر فيها يوم الحج الأكبر الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾[التوبة:٣]، ففيها يوم النحر اليوم العاشر الذي أعلن الله فيه البراءة من الشرك وأهله، وفيه من الفضل أنه اليوم الذي تعظم فيه شعائر الله بالتقرب إليه بالذبح قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ ﴾[الحج:٣٦].

أيها الإخوة الكرام إن هذا اليوم يعظَّم فيه الله جل وعلا، ويُتقرب إليه ﷻ بأنواع من القربات قال الله تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾[الحج:٣٧] فإن هذا اليوم يوم تعظيم لله ﷻ، فكان حق هذه الأيام أن تكون خير أيام الزمان.

أيها الإخوة الكرام عشر ذي الحجة هي الأيام التي تجتمع فيها أركان الإسلام، ففيها التهليل بذكر الله ﷻ، وفيها الصلاة، وفيها الزكاة، وفيها الحج، وفيها الصوم، فكلها أعمال تشرع في هذه الأيام «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلىٰ الله من هـٰذه الأيام**»[(١)] يعني أيام العشر الأول من ذي الحجة.

أيها الأخوة إن المغبون ذاك الذي مر عليه هذا الموسم الكريم، ذاك الذي مر عليه هذا الفضل الكبير الذي منّ الله به علىٰ أهل الإسلام دون أن يتزوّد بخير زاد أمر الله بالتزوُّد به وهو زاد التقوىٰ، يقول الشَّافعي رحمه الله: إذا هجع النوَّام أسبلت عبرتي، وأنشدت بيتا وهو من ألطف الشعر:

أليس من الخسران أن لياليا تمر   بلا خير وتُحسب من عمري

هذا إذا كانت الليالي التي ليس فيها فضل خاص، وفي الأيام التي ليس لها سبق خاص، فكيف بالأيام التي هي خير أيام الزمان إن فقدها وذهابها دون أن تودع فيها الصالحات ودون أن تعمر بالطاعات من أعظم الخسار، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وهذا حُكم علىٰ كل إنسان إلا من سلم بما ذكر الله من صفات أربع: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[العصر] هذه الخلال الأربعة، هذه الصفات الأربع هي التي يحصل لك بها النجاة، فاحرص

(١) تم تخريجه صفحة (١٠).

علىٰ الاستكثار منها في هذه الأيام، حقِّق إيمانك بالله تعالىٰ، حقق العمل الصالح، تواصَ بالحق مع إخوانك المؤمنين، تواصَ بالصبر علىٰ طاعة الله، بالصبر عن معصية الله، بالصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، فبه يحصل لك السلامة من الخسار ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

أيها الإخوة الكرام إنها منحة، وإنها منة، وإنها نفحة من نفحات الله عَزَّوَجَلَّ أن يبلغ بك موسم الخير والبر. قال خالد بن معدان رَحِمَهُ اللَّهُ: **إذا فُتِح لأحدكم باب خير فليسارع إليه؛ فإنه لا يدري متىٰ يغلق عنه.**

وما أحكمها من كلمة، وما أعظمها من عبرة، وما أعظمه من توجيه، إذا فتح لأحدكم باب خير فليسارع إليه فإنه لا يدري متىٰ يغلق عنه. وليتنا نستعمل هذه الوصايا في طاعة الله، وفيما يقربنا إليه، إن الناس إذا فُتح لهم باب خير من خير الدنيا تجدهم يتسابقون مسابقة حتىٰ يعتدي بعضهم علىٰ بعض، ويأخذ بعضهم حق بعض، حتىٰ ينال شيئا من متاع زائل ونعيم مرتحل، فكيف وقد زهد أكثر الناس في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يكن منهم عدو إلىٰ طاعة الله، لم يكن منهم مسارعة ولا مسابقة إلىٰ ما يقربهم إلىٰ الله تعالىٰ، إنه أعظم الخسار والله، روي عن هدّاب وهو أحد السلف الصالحين العباد رُوي عنه أنه قال: رأيت رجلا يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول:

تمنىٰ علىٰ ذي العرش ما شئت إنه جواد كريم لا يخيِّب سائلا

هذا الرجل يطوف ويردد هذا البيت ويبكي هذا البكاء، فاستوقفه هدَّاب فقال له: ما يبكيك؟ ما شأنك، لماذا هذا البكاء، وما الذي حملك علىٰ هذا الرجاء مع هذا البكاء؟

الإنسان قد يغنيه الرجاء فيترك البكاء، وقد يقعده الخوف فينمحي عن قلبه الرجاء، إلا أن هذا الرجل جمع بين وصفين هما جناحا المؤمن في سيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، جمع الرجاء بالفضل والإحسان من الله عَزَّوَجَلَّ فقال: تمنىٰ علىٰ ذي العرش. أي تمنىٰ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ما شئت؛ إنه جواد كريم لا يخيّب سائلا، ولم يقعد عن العمل؛ بل صاحب هذا خوف أقلقه، فأجرىٰ دمعه، خوف أزعج قلبه حتىٰ استغرب منه هدّاب ما كان منه فقال له: ما شأنك؟

فقال الرجل: أعظم الشأن شأني. -وأكبر وأعظم الشأن شأني- إني ندبت إلىٰ أمر فقصرت عنه، -فإني ندبت إلىٰ خير فقصرت عنه- فلم أبلغْه.

وإن الذي يدرك مواسم الخير ثم يقعد عنها، فلا يستزيد فيها خيرا، ولا يستزيد فيها صالحا ولا يتزود

فيها بخير زاد، قد قصر عما نُدب إليه وما دُعي إليه وما حث إليه، فينبغي لنا أيها الأخوة أن نبكي علىٰ أنفسنا، إننا نغتر كثيرا برحمة الله وفضله، والله أهل العفو والغفران والرحمة؛ إلا أنه قد قال جل وعلا: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾[الحجر]، فعذاب الله تعالىٰ يقترن برحمته، فينبغي لنا أن لا نغفل عن عذاب الله حتىٰ يستقيم سيرنا، وحتىٰ يستقيم عملنا، نحن ندعو إلىٰ أن يجمع المؤمن بين رجاء يسابق فيه إلىٰ خير الآخرة وخوف يُقعده عن السيئات، خوف يحمله علىٰ فعل الطاعات خوف يجنبه الردىٰ، يحمله علىٰ طاعة الله فيما أمر وعلىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ فيما نهىٰ.

أيها الإخوة الكرام؛ إنّ سلفنا الصالح كانوا يسابقون في أعمال البر وفي صنوف الخير، يستكثرون من الصَّالحات، تجد الواحد منهم معلمًا وعالمًا ومتعلمًا وداعيًا وصائمًا ومزكيًا، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، يجمعون خصال الخير، ومع ذلك هم في غاية الخوف ألا يُقْبَل منهم، في غاية الوجل أن يُرَدّ عليهم عملهم، في غاية الخوف من أن يدخل إليهم شيء إلىٰ أعمالهم أو إلىٰ قلوبهم يفسد عليهم ما قدموه، هم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾[المؤمنون]، يؤتون ما آتوا من الصالحات، يقدمون أنواعا من القربات، ومع ذلك ليس عندهم عجب، ولا عندهم ركون إلىٰ هذه الأعمال، إنما عندهم مسابقة إلىٰ الخيرات، مسارعة إلىٰ الطاعات، اجتهاد في كل ما يقرب إلىٰ الله تعالىٰ، وليس ذلك في شباب أو كبر، ولا في فترة من العمر؛ بل إنه في أيامهم ولياليهم؛ في زمانهم كلِّه يسارعون إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ ما في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من الأمر فيمتثلونه ما فيه من النهي فينتهون عنه.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **إذا طلعت الشمس من مغربها طوت الملائكة صحائفها.** لأنه يختم علىٰ الأعمال فلا يقبل إحسان زائد علىٰ ما كان، ولا يقبل توبة ممن كان قد أساء وفرّط.

إذا طلعت الشمس من مغربها طوت الملائكة صحائفها ووضعت أقلامها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في استنهاض الهمم وشحذ العزائم علىٰ الاجتهاد قبل أن يدرك الإنسان ذلك الزمان قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فالواجب علىٰ المؤمن المبادرة إلىٰ الأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها.**

كم هم الذين يتمنون أن يأتوا إلىٰ المساجد ليصلوا مع المسلمين؛ لكن حال بينهم وبين ذلك مرض أو عيب؛ فالواجب علىٰ أهل الإيمان -علىٰ المؤمن- المبادرة بالأعمال الصالحة، قبل أن لا يقدر عليها.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: **ويحال بينه وبينها إما بمرض أو موت أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يقبل معها عمل.**

أيها الأخوة الكرام؛ إننا في موسم مبارك كريم، إننا في زمن فيه خير كثير وأجر كبير لمن سابق في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ إلا أن أفضل ما يتقرب به إلىٰ الله تعالىٰ، وأفضل ما يتقدم به العبد من العمل في هذه الأيام ذكر الله جل وعلا الذي بذكره تطمئن القلوب، كما قال سبحانه وبحمده: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[الرعد] ذكر الله تعالىٰ بالقلب واللسان ذكر الله تعالىٰ بالقلب ذكره باللسان كل هٰذا مما ينبغي للمؤمن أن يشغل به نفس وأن يعمُر به زمانه؛ وذلك أن الذكر من أعظم ما تداوىٰ به القلوب، من أعظم ما تشفىٰ به القلوب، من أسقامها، من لوثاتها من أمراضها.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... ونترك الذكر أحيانا فنتكس

روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه من العمل فيهن من هذه العشر، فأكثروا فيهن من التكبير والتهليل والتحميد**»، هذا ندبٌ من النبي ﷺ أن نملأ أعمارنا في هذه الأيام وأوقاتنا وأزماننا وأحوالنا كلها بذكر الله عَزَّوَجَلَّ بتكبيره وتهليله وتحميده، فينبغي لنا أن نحرِص علىٰ ذلك غاية الحرص، كيف وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[الحج:٢٨] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الأيام المعلومات أيام العشر. وهو قول جماعة من أهل التفسير.

وقد روىٰ البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبي هريرة أنهما كانا يخرجان في الأسواق في الأيام العشر فيكبران فيكبر الناس بتكبيرهما.

أيها الإخوة الكرام احرصوا علىٰ كثرة التكبير والذكر في هذه الأيام، وفي كل الأحوال، فإنَّ الذكر من أعظم ما تحيىٰ به القلوب.

روىٰ الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت**»[1]، فينبغي لنا أن نستكثر من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، حتىٰ نستكثر من أسباب الحياة، إن الحياة الحقيقية أن يحيىٰ القلب بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، أن يحيىٰ الفؤاد بما

---

(١) **البخاري**: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، حديث رقم ٦٤٠٧. واللفظ له. **مسلم**: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته.. حديث رقم ٧٧٩.

يقرِّب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فاستكثروا إخواني من ذكر الله جل وعلا فإن ذكره تطيب به القلوب وتحيىٰ ويجعل الله للعبد نورا يستضيء به ويستنير؛ قال تعالىٰ: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[الأنعام:١٢٢] إنه لا سواء بين ذاك الذي ملأ الله جل وعلا قلبه بأنوارِ الهداية والطاعة وذاك الذي هو في ظلمات وعماء لا يصيب حقًّا ولا يدرك مطلبا إلا خير ما يذكر به الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأيام قول: **الله أكبر، الله أكبر، لا إلـٰه إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.** أكثروا من هذا يا إخواني في بيوتكم، في أسواقكم، في مساجدكم، في مجتمعاتكم، في كلِّ أحوالكم وأحيانكم، فإنه مما ترتفع به الدرجات.

إن من ذِكر الله تعالىٰ أن يسابق الإنسان إلىٰ قراءة القرآن ما استطاع من ذلك، فإن القرآن خير ما يُقرأ وخير ما دارت به الألسن، وخير ما استمعه المستمعون؛ وذلك أنَّ القرآن حياة القلوب، القرآن فيه الهدىٰ والنور، فيه شفاءُ ما في الصدور، فينبغي لنا أن نستكثر منه وأن نتعظ بعظاته، وأن نعتبر بما فيه من العبر والحكم فإنه طبُّ القلوب قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾[يونس].

أيها الإخوة الكلام، إنه مما يحافَظ عليه من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأيام، ما فرضه من الواجبات، من الصلوات في المساجد وغيرها، من الأذكار في أدبار الصلوات وأذكار الصباح والمساء، وغير ذلك مما يدخل في ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ومنه حضور مجالس الذِّكر فإن حضور مجالس الذكر من ذكر الله تعالىٰ، ومن ذكر الله تعالىٰ تعليم العِلم، ومن ذكره تعلُّم العلم، ومن ذكره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك كله من ذكر الله تعالىٰ.

أيها الإخوة الكرام اجتهدوا في الذكر، واعلموا أنَّ الذكر في هذه الأيام علىٰ نحوين:

- ذكر مطلق.
- وذكر مقيد.

الذكر المطلق يكون في كل حين، وفي كل حال، وفي كل وقت، قائمًا وقاعدًا وعلىٰ جنب كما قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾[آل عمران]، هذا الذكر هو الذي يكون في كل حين وفي كل وقت، الذِّكر الذي يصاحب الإنسان في قيامه وقعوده، في ذهابه ومجيئه، في دخوله وخروجه، هذا الذِّكر الذي

يكون في كل حين، وهو الذكر المطلق.

أمَّا القسم الثاني فهو الذكر المقيَّد.

يبتدئ **الذكر المطلق** من أول شهر ذي الحجة، من غروب شمس آخر يوم من أيام ذي القعدة، وينتهي الذكر المطلق بغروب شمس اليوم الثالث عشر، الذكر المطلق الخاص بهذه الأيام وهو: **الله أكبر، الله أكبر، لا إلـٰه إلا الله، والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.**

أما **الذكر المقيد**، فالمراد بالتقييد هو ما يكون بعد الصلوات المكتوبات في الجماعات، فإنه بعد صلاة فجر يوم عرفة إلىٰ عصر آخر يوم من أيام التشريق، كل هذا محل للذكر المقيد بالنسبة للمقيم، فإذا فرغ من الصلاة وقال: **أستغفر الله، أستغفر الله، استغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.** يشرع قائلا: **الله أكبر، الله أكبر، لا إلـٰه إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.** ما شاء، مرة، ثلاثا، خمسا، حسب ما يتيسر له، دون تحديد بعدد، أودون تحديد بحد، وهو تكبير يستكثر منه ما استطاع، ثم يأتي بالأذكار المشروعة بعد الصلوات.

هذا هو الذكر المقيد بالنسبة للمقيم.

أما الحاج فإنه يبدأ ذكره المقيد بعد صلاة الظهر من يوم النحر لكونه مشتغلا قبل ذلك بالتلبية والتكبير وغيره علىٰ وجه الإطلاق، هكذا قال العلماء رحمهم الله.

إذن عندنا تكبير مطلق وتكبير مقيد، وهو ممّا يختص هذه الأيام.

لكن الذكر عموما ينبغي أن لا يفارقه الإنسان في هذه الأيام وفي غيرها، فعائشة ل تقول: **كان النبي ﷺ يذكر الله في كل أحيانه.** في كل أحيانه قائما وقاعدا وعلىٰ جنب، وأنت إذا نظرت إلىٰ هدي النبي ﷺ وجدت أمرا عجبا من ذكر الله ﷻ، فرسولنا ﷺ كما في الصحيح إذا استيقظ مسح النوم عن وجهه، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾[آل عمران] إلىٰ آخر ما ذكره الله ﷻ في أواخر سورة آل عمران. هذا مبدأ رسول الله ﷺ، مبدأ يومه، مبدأ استيقاظه، ثم يكون من الصلاة والذكر والعبادة أمر عجيب جلل، حتىٰ إنه تتورم تتفطر قدماه ﷺ من قيامه وصلاته لربه.

تقول عائشة كما في «صحيح الإمام مسلم» رَحِمَهَا اللَّهُ: فقدتُ رسول ﷺ ليلة فطلبته، فوقعت يداي علىٰ

قدميه منصوبتان في مصلاه. وهو يقول: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك.**»[١]، هكذا رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ في عبادته لربه، في جِد، وفي عمل دائم، وفي طاعة مستمرة، وفي مسابقة لأيام العمر، أن يفوته شيء من الخير، أو أن يمضي عليه وقت في غير طاعة وعبادة.

أيها الإخوة الكرام إن الذكر من أعظم ما تحيا به القلوب، فاحرصوا عليه، أظهروه في بيوتكم أظهروه في منازلكم ومحلاتكم وأسواقكم ومساجدكم وسياراتكم، وفي كل حين، واعلموا أن هذا من إحياء سنة النبي ﷺ لاسيما في هذه الأيام.

إنَّ من الأعمال الصالحة التي تكون في هذه الأيام قصْد البيت الحرام حجًّا وتعبُّدًا لله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرض الحج علىٰ الناس فقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[آل عمران:٩٧]، وهذا الحج له من الأحكام والفضائل ما يضيق عنه الوقت.

إنما ينبغي أن نعلم أنه من أفضل ما يُتقرَّب به في هذه الأيام، قال النبي ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.**»[٢]، وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه.**»[٣].

وبهذا يتبين أن الحج يجمع فضيلتين:

الفضيلة الأولىٰ: **التخلية من السيئات**، التطهير من الشر، وأوغار المعاصي والسيئات، وذلك في قوله ض: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**».

وأما الفضيلة الأخرىٰ: ما يحصل من السّبق والخير لمن حجّ، فقد قال النبي ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة.**».

وإنما يكون مبرورًا:

- إذا كان خالصا لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٦).

(٢) **البخاري**: كتاب العمرة، باب العمرة، وجوب العمرة وفضلها، حديث رقم (١٧٧٣). مسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، حديث رقم (١٣٤٩).

(٣) **البخاري**: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، حديث رقم (١٥٢١). مسلم: كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، حديث رقم (١٣٥٠).

- إذا كان علىٰ وفق هدي النبي ﷺ.
- إذا اجتنب فيه الحاج المحرمات.
- وإذا قام فيه بالواجبات.
- وإذا كان من مالٍ حلال.

وبهذه الخمسة أوصاف يحصل الحج المبرور، نسأل الله أن يجعلنا حجنا مبرورا، وسعينا مشكورا.

أيها الإخوة الكرام× إن من الأعمال الصالحة التي يُتقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بها في هذه الأيام ما ذكره الله في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ في سورة الكوثر، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ فذكر الله جل وعلا في هذا هذه الآية شُكْرُ الله علىٰ نعمه، فالكوثر هو الخير الكثير الذي أعطيه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ، أمره الله بشكره بعبادته، الصَّلاة والنَّحر، الصلاة قيل صلاة العيد، والنحر قيل في تفسيره: إنه ما يكون من التقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بذبح الأضاحي.

الأضاحي من شعائر الله التي يتقرّب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بها كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[الحج:٣٦]. حافظ عليها رسول الله ﷺ وحرص، وكان النبي ﷺ يضحِّي عنه وعن أهل بيته بكبش وفي بعض الأحاديث ضحىٰ بكبشين صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ.

فينبغي لنا أن نحرص علىٰ هـٰذه السنة وأن نظهرها، وأن نعلم أن المقصود من الأضحية التقربُ إلىٰ الله تعالىٰ بالذبح، لا المقصود اللّحم ولا الدم ولا ما إلىٰ ذلك من المقاصد، قال الله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[الحج:٣٧]، فالذي يبلغ الله جل وعلا من العبد هو ما يقوم في قلبه من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ من تقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فينبغي لنا أن نحرص علىٰ هذه السنَّة وعلىٰ هذه الشعيرة، وأن نظهرها في بيوتنا وفي بلداننا، وبين أهلينا حتىٰ يعرفُوها، فإن من الناس من يقصِّر في ذلك ويكتفي بالصدقة بقيمتها أو ببعثها إلىٰ جهات خارجية فيفوته بذلك خير كثير وسنن كثيرة.

أيها الإخوة الكرام؛ إن من الأعمال الصالحة التي نُدبنا إليها في هذه الأيام ما يكون من صيام يوم عرفة، فإنَّ النبي ﷺ سئل عن صوم يوم عرفة فقال: «**إني أحتسب علىٰ الله أن يكفِّر السنة الماضية والباقية**» وفي رواية أخرىٰ سئل عن صوم يوم عرفة فقال: «**يكفر السنة الماضية والباقية**».[1]

---

(١) **مسلم**: كتاب الصيام، باب باب استحباب صيام ثلاث أيام من كل شهر والصوم يوم عرفة.. حديث رقم ١١٦٢.

فينبغي علينا أن نحرص علىٰ صيام هذا اليوم، أما عدا هذا اليوم من بقية أيام التسع قبل اليوم العاشر فإن صيامها لم يرد عن النبي ﷺ؛ لكنها من الخير والفضل الذي ينبغي المسابقة إليه والأخذ به لدخوله في عموم قول النبي ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلىٰ الله من هذه الأيام.**»(١).

أيها الإخوة الكرام ما هي إلا أيام، ما هي إلا ساعات، ثم تنقضي، ويصبح ذو الأعمال فرحانا، يصبح صاحب العمل فرحانا بعمله مسرورا بما قدم.

فينبغي لنا أن نحرص علىٰ الاستكثار من الأعمال الصالحة طاقتنا وجهدنا، وأن نحتسب الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك كله.

أيها الإخوة إن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن منّ علينا بهذه المواسم التي يتعرض فيها عباد الله الصالحون لنفحات الله جل وعلا ومواهبه وكرمه، فإذا عجز الإنسان عن شيء من ذلك فإنه ينبغي له أن لا يعجز عن عمل لا يعجز عنه إلا عاجز، وهو ما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قلت: يا رسول الله؛ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله والجهاد في سبيله**»، قال قلت: يا رسول الله؛ أي الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا**»، قال قلت: يا رسول الله؛ فإن لم أفعل؟ يعني إن لم أفعل بالعمل الذي ذكرت المتقدم من أفضل الأعمال وأفضل الرقاب. قال: «**تعين صانعًا، أو تصنع لأخرق**» أي تعين إنسانا يحتاج إلىٰ إعانة أو تصنع لضعيف لا يستطيع الصناعة.

قال قلت: يا رسول الله؛ أرأيت إن ضعفتُ عن بعض العمل؟ يعني أرأيت إن عجزت عن هذا أيضا، قال: «**تكفُّ شرك عن الناس، فإنه صدقة منك علىٰ نفسك.**»(٢) وهذا لا يعجز عنه إلا عاجز، فإن كفَّ الإنسان شرَّه عن غيره مما يستطيعه كل أحد.

فينبغي لنا أن نكف شرورنا عن الآخرين، فإنَّ الشرور تعظم وتضاعف في وتغلّظ في أيام البر والخير، كما أنها تعظم وتغلظ عقوبتها في الأماكن المباركة، قال الله تعالىٰ في حق المسجد الحرام ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[الحج] وكذلك في الأزمنة المباركة تغلظ العقوبات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في انتهاك الحرمات ومواقعة السيئات في ليلة الجمعة يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقلّ أن يترك الله**

---

(١) تم تخريجه صفحة (١٠).

(٢) **البخاري**: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، حديث رقم ٢٥١٨. **مسلم**: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، حديث رقم ٨٤. واللفظ له.

جل وعلا من عصاه في ليلة الجمعة.

وذلك أنها ليلة مباركة، هي ليلة خير أيام الأسبوع، فكان انتهاك حرمة الزمان من أسباب العقوبات.

نسأل الله ﷻ أن يعيننا وإياكم علىٰ البر والتقوىٰ، وأن يستعملنا فيما يحب ويرضىٰ، وأن يجعلنا من عباده المتقين، ومن حزبه المفلحين، ومن أوليائه الصالحين.

اللّٰهُمَّ إنا نسألك أن تأخذ بنواصينا إلىٰ ما تحب وترضىٰ، وأن تصرف عنا السوء والفحشاء، أن تجعلنا من خير عبادك وأسعدهم بك يا رب العالمين.

اللّٰهُمَّ إنا نسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والرشاد والغنىٰ.

اللّٰهُمَّ أعنا ويسر لنا الهدىٰ يا رب العالمين. اللّٰهُمَّ اهدنا ويسر الهدىٰ لنا. اللّٰهُمَّ يسر الهدىٰ لنا.

اللّٰهُمَّ انصرنا علىٰ من بغىٰ علينا.

اللّٰهُمَّ أعنا ولا تُعن علينا.

اللّٰهُمَّ اجعلنا لك ذاكرين شاكرين، لك راغبين راهبين، إليك أوَّاهين منيبين.

اللّٰهُمَّ تقبل توبتنا.

اللّٰهُمَّ ثبت حجتنا.

اللّٰهُمَّ أقل عثرتنا.

اللّٰهُمَّ سُلّ السخيمة[1] من قلوبنا.

اللّٰهُمَّ إنك عفو تحب العفو فاعف عنا.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

ونقتصر علىٰ هذا.

---

(١) جمعها سخائم، وهي الضغينة. انظر المنجد مادة (سَخَمَ).